صندوق الدقيق

قصة بقلم فاضل السباعي

انطلق مفيد ، في ذلك الصباح ، من بيته في طريقه الى قصر العدل ، وقد تأبط محفظة أحال لونها البني ما توالى عليها من سنين، تنوء بما احتملت بين احشائها من اوراق ووثائق واضابير ... وان مفيداً لحريص كل الحرص – اذ ينطلق الى عمله كل صباح – ان يخرج من بيته في « حي الجديدة » مبكراً ، لئلا يفوته التمتع بميزة التخفيض الممنوحة لركاب الحافلات فيما قبل السابعة والنصف صباحاً ، حيث يمنحون تذكرة تخولهم حق الاياب الى بيوتهم مجاناً في الوقت الذي يشاؤون !.

وخلف مفيد الزقاق وراءه ، قبيل السابعة من ذلك الصباح ، يحدوه في ذلك نشاط واقتدار – على غير عادته – ولكن يخالطهما غير قليل من القلق والخوف والرجاء ... ماراً في طريقه بسوق الخضار في الحي ، متسمعاً – برغمه – الى الباعة،كل ينادي متحمساً على ما اصطف امام دكانه من سلال الخضرة والفاكهة ، فكلها يافع طازج قد اقتطف في الليل المنصرم ووصل منذ هنيهات !.. حتى تناهى به المسير الى«جادة الخندق ».. وهناك وقف يترقب مقدم الحافلة من صوب « باب الفرج » لتقله الى قصر العدل «تحت القلعة».

قالت له امه قبل ان يغادر البيت منذ لحظات :

– ابني ... ان صندوق الدقيق قد شارف على النهاية ... فحبذا لو مررت ، في طريق عودتك في الظهيرة ، بابي يوسف الخانجي ، فبعثت لنا بشوال حنطة !.

فتفكر مفيد في قولها قبل ان يجيب ... وتخيل ذلك الصندوق الحديدي الرابض منذ عديد من السنين في جانب من القبو ، قد ورثته امه عن والدها الكريم ، واختصته لان تضع فيه الدقيق ، لتحول – صنيع والدها ! – بين قوتهم الشحيح وبين الفئران التي تصول في القبو على غير طائل لنموت في آخر الامر غير مأسوف عليها من لسعات الجوع المريرة !. تصور مفيد هذا الصندوق يبين للرائي قاعة من خلاء وخواء ، او يكاد يبين !. لكم نفص هذا الصندوق عليه عيشه!..إنه دائماً يحدث خطاه الى ان يفرغ سريعاً ويخوي مما يودع فيه من قوت يمسك عليهم الحياة !.. ومفيد ليس يدري ، اهو وامه وحدهما يبتلعان محتوى الصندوق جميعاً ، ام ان الصندوق ذاته يشاركهما في ذلك ، فيتناول في كل يوم وجبة منه عظيمة لا يكاد يبقى معها في الصندوق من الدقيق شيء ؟.. وها هوذا اليوم قد خوى ، وليس في جيب مفيد ما يكفل لان يرد على الصندوق امتلاءه ورواءه .. على انه – مع ذلك – قال لامه بلهجة كلها صدق وتأكيد :

– حسناً ... لسوف اقبض اليوم خمسين ليرة ... وستكون الحنطة عندك مع الظهر !.

وليس يدري مفيد – الآن – كيف القى الى امه بهذا الوعد الذي ادخل الى نفسها السرور والرضا والارتياح ، والذي ينطوي على كثير من التجوز والمغالاة ، كما لو كانت « ذات الخمسين » الليرة في جيب سترته الداخلي ساعة ان قال ما قال ، والحال إنها – في كف عفريت ، او هي معلقة ما بين الارض والسماء!..

وقصارى امر الخمسين الليرة ، ان همس الاستاذ المحامي في اذن مفيد مساء البارحة :

– ألست تعرف الحاج بكريا الخوام ، تاجر الاقمشة في « سوق المدينة » في اول « سوق الزرب »...الذي دفع الينا منذ حوالي الشهرين بدعوى « تحصيل دين »؟

– بلى ...

– إن المكتب في ذمته خمسين ليرة سورية رصيد حسابنا بخصوص تلك الدعوى ... فامض اليه صباح غد ، وبلغه صدور الحكم لصالحه ... وإن انت حصلت منه الرصيد فهو لك !..

كان مفيد محامياً تحت التمرين ، يعمل في مكتب أستاذه هذا . ولقد مضى عليه فيه – منذ تخرج من الجامعة – ثلاثة اشهر ما تنشق خلالها عبير « العملة » ، وما تذوق للكسب طعماً ، على كثرة ما يقوم به من عمل في قصر العدل ، ويرافع فيه من دعاوي !.. كان يعمل لحساب استاذه دون ان يدفع له هذا مقابلاً ، بدعوى انه يحقق له فرصة تحصيل المعرفة والالمام بتفاصيل المهنة واسرارها ، وذاك حسبه !

وهو – ايضاً – ما كان يقدم اليه من ذوي المشاكل إلا الصديق الذي يطمع في صداقته ، والقريب الذي غدا اليوم – فقط – يعتز بقرابته ... وهؤلاء ايضاً لا يدفعون له على خدماته اجراً ... ولا دامت وشيجة الصداقة ، ولا كانت آصرة القربى ، إن هو ألمح لهم بان جهوده تلك ينبغي ان يكون لها ثمن يتقاضاه كيما يسد على نفسه واهله الرمق ويدفع في عروقهم دم الحياة !.

وفي ذلك ، كان مفيد يتندر، بينه وبين نفسه ، على بؤس حاله فيقول: إن « العملة» و « أختي » سواء ، كلاهما علي حرام !

واقبلت الحافلة من صوب «باب الفرج » تنوء بما احتشد فيها من خلائق واكتظ من بشر ،تسير لاهثة مبهورة الانفاس ... فاذا حطت امام مفيد دلف اليها واندس فيها بين من اندس من ناس .

واسترق التفكير مفيداً ، اذ راحت الحافلة تنسارع به وبما حوت من اخلاط واوشاب .. فتذكر استاذه وقد رق له قلبه – يوم البارحة – ورثى لحاله !.فعهد اليه بتحصيل المتبقي من اتعاب قضية الحاج بكري الخوام، على ان يكون حقاً خالصاً له !.

ولقد عرف مفيد ، منذ قدم الى مكتب الاستاذ ، في الحاج بكري الخوام هذا ، رجلاً في مستهل الشيخوخة ، ناحل الجسم طويلاً ، يرتدي « الصاية » الحريرية ومن تحتها « السروال » الفاصون الاسود ، يتبدى في حديثه جشع وخسة وخبث !. وقد طال جدله مع الاستاذ من قبل ان يصلا الى اتفاق على الاتعاب ، فلا هو راض ان يدفع المبلغ المناسب ، ولا هو بمستعد ان يبرم عقداً ينص فيه على ما تقدم من الاتعاب وتأخر ، وانما هو يريدها على « البركة ».. وما دفع للاستاذ سوى مائة ليرة بالرغم من اهمية الدعوى « متعللاً بان حركة السوق مشلولة والربح معدوم !..» ثم انطلق خارجاً من المكتب ، بينما كان الاستاذ يردد من ورائه مؤكداً:

– اما الخمسون الليرة ، فسوف تدفعها بعد صدور الحكم ...

وكان يجيبه الحاج بكري الخوام .

– صل على النبي يا استاذ .. خلها على الله .. بيني وبينك ما في

« تكليف » !

***

وصلت الحافلة بمفيد الى منتهى الخط خلف قصر العدل ، فهبط منها ، وجاز دار الحكومة ، مارا من « تحت القلعة » ، في سبيله الى دكان الحاج بكري الخوام .

فلما اصبح في اول « سوق الزرب » ، بصر بالحاج بكري الخوام في دكانه يتوسط عدداً من الزبائن مقتعدين كراسي قش واطئة ، ينتقون قطعاً من الجوخ متناثرة امامهم ، يحملها اليهم الحاج بكري الخوام ، في الفينة والعينة ، من طرود ضخمة قائمة في فم الدكان ، يحل من حولها الاطواق ، ويستل منها قطع الجوخ .. ثم يعرضها على زبائنه عرض البائع الحاذق الصناع .. ينشر احداها على المنضدة امامهم .. ثم يروح يتمدح ذلك اللون الضارب الى زرقة السماء .. مشيداً بما يستورد من امريكا من « بالات » تضم خير ما يفيض عن مصانع الاجواخ فيها من فضلات قماش ! وهو – في ذلك – يشد طرفاً من القطعة بين يديه شداً يبين للرائي عنيفاً من اجهاد يتبدى على قسمات وجهه اذ يشد ، وليس الشد في الواقع من العنف في شيء ، وانما هو بعض من حذق وفن ومهارة امتاز بها الباعة في « سوق المدينة » في حلب !!

ألقى مفيد التحية على الحاج بكري الخوام .. فرفع الشارون اليه رؤوسهم يحدوهم في ذلك تطلع وفضول ، وردوا السلام ، ليعودوا بعده الى ما كانوا فيه من انشغال في بيع وشراء ... اما الحاج بكري الخوام ، فقد رفع الى مفيد عينين لم يبق فيهما من الرضا والارتياح شيء ، ليردهما في الحال الى ما كان يشغله من تزويق وشد وطي وتطبيق ، من دون ان يكلف نفسه عناء رد التحية على الضيف الوافد ان كان في رد التحية من عناء .. فكأن الامر لا يعنيه من قريب او بعيد !.. وآية ذلك ، ان الحاج بكريا الخوام عرف – بحاسة التاجر التي لا تخطىء – ما تنطوي عليه هذه الزيارة من معنى ، انه مطالبة بمؤخر الاتعاب ، وانه يريد الى ان يروغ من تأديتها فلا يدفع منها قرشاً ! اما نجاح دعواه ، فامر سلم به لديه كل التسليم ، لكونها مدعمة – في اثبات موضوعها – بوثائق واسانيد مكتوبة لا مطعن فيها ولا جدل ، فضلا عن ان حضور هذا الاستاذ اليه في دكانه لبرهان على نجاحها ، فلو كانت خاسرة لما اتاه مع الصبح اليه ينعي حقاً له لفظ انفاسه في ساحات المحاكم !

وظل مفيد واقفاً حيث كان في مدخل الدكان ، في انتظار الشيخ بكري الخوام ، فيقوم اليه يسأله في لهفة عما تم في امر دعواه .. فيزف اليه خبر نجاحها ، ثم لا يحتاج بعد ذلك الى ان يلج في طلب ماله في ذمته من حق . فلا ريب ان الفرصة ستدفع الحاج الى ان يهرع الى اقصى الدكان ، حيث تضم خزانته الحديدية بين جوانحها ما تكاد تمجه من اوراق نقد .. فيسحب من بينها ورقة من ذات الخمسين يدفعها الى مفيد شاكراً له حسن مسعاه !.. ولكن الحاج بكريا الخوام ما بارح مكانه .. بل ما رد التحية ، وهي اضعف الايمان !!.

وطال بمفيد الوقوف في باب الدكان ، وقد فهم من ظروف هذا الاستقبال ما يبطنه الحاج بكري الخوام من نية هي التهرب من دفع المتبقى من الاتعاب !.. ولكن ، اما يجدر بالرجل ان يسأل – بالادنى – عن مصير دعواه ؟!.

وجعل مفيد يتململ في مكانه ، والحاج بكري الخوام في تشاغل عنه .. الى ان نادى عليه بصوت ارعشه التردد واوهنه الخجل من موقفه ذاك ... ولكن الحاج بكريا الخوام ظل مصماً اذنيه عن النداء ، متشاغلاً بالعرض تارة والمساومة اخرى !

فلما استطال تشاغله كثيراً ، رفع مفيد من صوته اذ جعل يناديه .. فالتفت اليه الحاج بكري الخوام بلفتة خاطفة كما لو كان يسمع صوته ويحس بوجوده للمرة الاولى .. وقال بلهجة تطفح بالاستعطاف مخالطاً بضجر واستكراه :

– عدم المؤاخذة يا استاذ .. انني مشغول كما ترى هذا النهار .. مر علي في وقت آخر !..

وما رأى مفيد بدأ من الانصراف ، ولكنه احب ان ينهي – قبل ان ينصرف – الى الحاج بكري الخوام نجاح دعواه ، وان امسك هذا عن السؤال ، فقال :

– على كل .. يهمني ان اخبرك بان الدعوى نجحت !.

فلم يبد على الحاج بكري الخوام انه سر ذلك السرور الذي قدره مفيد .. كل ما بدا عليه ان رد على مفيد بكلمة شكر مقتضبة ، وهو يقلب البضاعة بين يديه !..

وتظاهر مفيد بالرضا ، وتكلف الابتسام ، وسلم ومضى على ان يعود في الظهيرة بعد ان يقوم بعمله اليومي .

وفي طريقه الى قصر العدل ، كان يحس بيد رعناء تتسلل الى صدره لتعتصر له قلبه .. انه عرف طوية الحاج بكري الخوام !.. أتراه سيفقد الخمسين الليرة ، كسبه الاول من المحاماة ، فلا يدخل اليوم خان ابي يوسف ليشتري شوال الحنطة الذي وعد به امه في الصباح ؟!

ووصل الى قصر العدل ، فصعد الى قاعة المحامين ، حيث ارتدى ثوب المحاماة .. ثم ارتد نازلاً الى الطابق الاسفل يتنقل من محكمة الى اخرى ، تراود خياله – في ذلك – صورة الحاج بكري الخوام في جلسته بين زبائنه وتشاغله عن وجوده بالعرض والمساومة ، يدفعه الى ذلك لؤم في الطبع وجشع كريه ..

ولما قاربت الساعة الثانية عشرة ، كان مفيد قد ادى كل ما عليه من واجب . فغادر قصر العدل الى « سوق المدينة » .. فعمل الحاج بكريا

صدر حديثاً

عشر قصص عالمية

من اروع النتاج الغربي المعاصر

نقلها عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

دار العلم للملايين

الخوام قد تخففت دكانه من الزبائن ، فيستطيع مفيد ان يطالبه بما له عليه من دين !.

فاذا اصبح في اول « سوق الزرب » ابصر بالحاج بكري الخوام مقبلا من بعيد ، وفي يد منه صرة صغيرة وفي الاخرى رغيفان ، متوجهاً الى دكانه .. وقد لمح هذا بدوره مفيداً فتسارع في مشيته ، ودلف الى الدكان . وتناول في الحال صحناً من « الالمنيوم » من على الرف ، ودلق فيه بمحتوى الصرة ، واذا هو عنقودان من العنب وقطعة من الجبن.

وعندما غدا مفيد في باب الدكان .. كان الحاج بكري الخوام يتربع على « طراحة » فوق سجادة قد انهكها القدم وعضها البلى في كل ضرس وناب .. وامامه طعامه ذاك .. ثم تناول كرسيا من القش من جانبه وجعله فيما بين طعامه وبين انظار المارة لئلا تقع عليه عين .. وشرع يطعم .. وبعدها رفع رأسه الى الضيف ، واللقمة في فمه ، وصاح مرحباً مؤهلا بالاستاذ المحامي .. ثم قال مشيراً الى طعامه :

- تفضل شاركني ، يا استاذ ..

- صحة وعافية ..

- طعامنا كما ترى على قدر الحال : خبز وجبن وعنب .. ونحن جماعة على باب الله !..

- فيكم البركة ، يا عم ..

وبعد بضع لقمات انشأ يقول :

- عدم المؤاخذة « دخيلك » يا استاذ .. انا اليوم صباحاً كنت مشغولاً كما رأيت .. الشغل كثير والربح معدوم .. وفوق هذا لا يدفع الزبون الثمن نقداً ، بل الدين والآجال .. ولما نطالبه في الاجل يتهرب من الدفع .. فنقيم عليه دعوى ، اما نكسبها او نخسرها ، فان كسبناها فقد اضعنا فرصة استثمار مبلغ الدين ، كما نضيع وقتنا عند المحامين وفي المحاكم !!.

وسكت ريثما يزدرد لقمة جديدة ، ليقول بعد ذلك مؤكداً :

- السوق واقف يا استاذ .. ما في شغل .. اصبح القرش اليوم في فم السبع ، والشاطر الذي يمد يده اليه !..

ولاذ مفيد بالصمت لا ينبس .. وقد ملأت عليه رائحة الجشع نفسه ، فضاق منها صدره . وانقبض قلبه .. وكادت كرامته ان تعاف المضي في مطالبة الحاج بكري الخوام .. ولكن تصور قاع صندوق الدقيق ، فطابت نفسه ، وتطامنت كبرياؤه .. وفتح فاه ليتكلم ، ولكنه ما استحسن ان يطالب بالمتبقي من حقه والرجل ما زال يطعم .. يطعم بالرغيفين والعنقودين وقطعة الجبن ، فلا هو يشبع ، ولا الطعام ينفد ! ..

وبعد دقائق خالها مفيد ساعات ، شبع الحاج بكري الخوام .. وتجشأ .. واستغفر الله وحمده على نعمائه كثيراً .. ثم قام الى ابريق في طرف من الدكان ، فرفعه الى فمه وجعل يكرع .. وبعدها يسحب قدميه من « صرمايته » .. وشمر سرواله عن رجليه ، وحسر كميه عن ساعديه وجعل يتوضأ ويطيل في الوضوء .. ومفيد في ذلك يستحي ان يقطع على الحاج بكري الخوام ! وضوءه !.. ثم شرع هذا في صلاة الظهر ، وتنقل ما شاء له التنقل ... وجلس - بعد كل ذلك - الى طراحته في مدخل الدكان قبالة مفيد ، وقال مرحبا :

- اهلين استاذ ..

فرآها مفيد فرصة مواتية ليفاتح الرجل بالامر من قبل ان ينهمك في عمل جديد قد لا ينتهي منه الا والمؤذن يدعو لصلاة العصر .. قال :

- معلوم لديك ، يا حاج بكري ، ان الدعوى ربحت ؟ ..

فقال الحاج بكري الخوام ، وهو يضع كفه على رأسه صنيع من يروم التعبير عن الشكر والامتنان :

- نحن حافظون لكم هذا الجميل يا سيدي .. على الرأس والعين !.

- وانك دفعت مقدم الاتعاب فقط ؟ ..

فاتسعت في وجه الحاج بكري الخوام ، الاحداق .. ثم زوى ما بين عينيه وهو يقول بكثير من الدهش والاستنكار :

- اي مقدم للاتعاب ومؤخر ؟!.

- انت ، يا حاج ، دفعت مائة ليرة ، وباق خمسون !..

- اية خمسين ؟!

- الخمسون الليرة التي امهلك الاستاذ في دفعها حتى صدور الحكم !..

- يا اخي ، اطال الله عمرك .. كل ما فعلتموه ان حضر احدكما جلسة في المحكمة او جلستين !!

- وما في ذلك ؟.. اكنت تدفع لنا ، اذن ، كامل حقنا عن طيب خاطر ، لو نحن عمدنا الى طلب التأجيل كلما هم القاضي بالفصل في دعواك فلا نستصدر لك الحكم قبل مضي سنة او سنتين ؟!.

وهنا .. بدا ان هذا القول لم يرق للحاج بكري الخوام ، فقد سد عليه منافذ الروغ والتهرب . فقال يريد ان يختتم النقاش :

- يا استاذ .. انا دفعت ما ينبغي علي دفعه .. ولستم تملكون حق مطالبتي بشيء !.. أمعك سند يثبت ان لك في ذمتي حقاً ؟؟ .

وما عرف مفيد بما يجيب .. لانه - في الحق - لا يملك مثل ذلك السند الذي يخوله مطالبة الرجل امام القضاء ، فقد كان الحاج اذكى من ان يمكن خصمه من حق مقاضاته وابعد تفكيراً او تدبيراً ! .

اذن ، فلن يدفع الحاج بكري الخوام الخمسين الليرة ، على الرغم من ان الاستاذ قد اشترط عليه دفعها بعد ان يصدر الحكم ، وقد اجاب في حينها ، « صل على النبي .. خليها على الله » .. ام ترى هذه الاجابة تعني - في عرفه - الرفض وعدم القبول ؟!. ربما كان الامر كذلك .. وربما كان الاستاذ على علم به ، وانما كان يخامره بعض الامل والرجاء في ان يدفع الحاج بكري الخوام لو طولب ... فتبرع بتلك الحشاشة من الامل الى مفيد !!.

***

ومضى مفيد مخلفاً وراءه « سوق الزرب » . ولما كان يطرق الشارع في طريقه الى الحافلة ، كانت شمس الظهيرة تصب عليه جمرا ولهبا يسح منه - معها - عرقه سحا .. بينما كان يقطع قلبه حنق والم واسى مرير!

ولما مرت به الحافلة في « باب الحديد » ، حيث تعج الخانات عجاً ... القى بناظريه الى خان ابي يوسف .. فرأت عيناه اكياس الخنطة يحملها العتالون الى داخل الخان من شاحنة كبيرة رابضة ازاء مدخله .. واستذكر مفيد قوله لامه في ذلك الصباح .. وتصور صندوق الدقيق وتراءى له قاعه من خلاء وخواء .. وايقن كل اليقين انه لم يعد في وسعه اليوم - على الاقل - ان يحجب هذا القاع عن ناظري امه وان يعيد الى الصندوق الرواء والحيوية والامتلاء !..

حلب — فاضل السباعي